وقد كان معلمنا يذكر لنا كل شيء عن فلسطين الا امرا هاما كان يلفت انتباهنا ويثير حيرتنا . انه لم يكن يذكر لنا عاصمة فلسطين . وهل من المعقول ان تكون بلادنا من غير عاصمة وللبلاد الاخرى عواصم ، اصبحنا نحفظها عن ظهر قلب . وغدونا نحن التلاميذ في حيرة من أمرنا وجمعنا شجاعتنا مرة ، وقلنا لمعلم الجغرافيا : خوجة افندي : وما هي عاصمة فلسطين ؟

وكلمة « خوجة افندي » تعبير تركي معناه « يا حضرة المعلم » ، وقد بقي هذا التعبير على السنتنا ، ننادي به معلمنا بعد زوال العهد العثماني بعام او عامين .

فأجاب المعلم : في السابق كنا تابعين لبيروت . أما اليوم فان عاصمتنا هي « القدس الشريف » ، ثم سألناه أين هذه « القدس الشريف » فرسم لنا خريطة لفلسطين ، ووضع نقطة كبيرة في وسط فلسطين كتب عليها « عاصمة فلسطين » وحدد على الشاطىء المدن الساحلية : عكا ــ حيفا ــ يافا ــ غزة .

وهكذا عرفنا أن عاصمتنا لم تعد شمالا في بيروت ، وانما اصبحت جنوبا في القدس الشريف .

والقدس الشريف مثل الشام الشريف ، تعابير تركية اطلقها الرعيل الاول من العثمانيين المتدينين ، فضموا الى القدس والشام كلمة شريف تكريما وتشريفا .

وذات يوم ، في عطلة الجمعة ، تأكد لنا أن ما يقوله معلم الجغرافيا صحيح ، فقد ذهبنا الى محطة السكة الحديد للنزهة . فلم يكن عندنا شيء من وسائل التسلية سوى الخروج الى المحطة للتفرج على القطار وعرباته ، والمسافرين وهم يركبون وينزلون ، ونحن في عجب كبير ، كيف يسير القطار بالبخار . فذلك علم لم نتعلمه الا بعد ذلك بسنين .

وكنا نطوف حول العربات ذهابا وايابا ، من خلف وقدام ، لنتفرس بالعجلات والقضبان والابواب والنوافذ ، ثم نقرأ ما هو مكتوب على هذه العربة او تلك .

وكان بين هذه العربات ، وهي من مخلفات الدولة العثمانية ، عربات مكتوب عليها : سكة حديد الحجاز ــ « قدس شريف » ــ « شام شريف » الى غير ذلك من العبارات . ويومها تأكد لنا معلمنا بارع في علم الجغرافيا ، ومن أصدق من القطار علما ؟!

ومضينا مع معلمنا في علم الجغرافيا وهو يملي علينا دروسه ونحن نكتب . عن فلسطين ، وعن مساحتها وعدد سكانها ومدنها ، وجبالها ، وكان يركز على « قدس شريف » فيشيد بقيمتها الدينية ، وحصانة أسوارها ومناعة أبراجها ، ويسرد أسماء ابوابها ، ثم يصف لنا بالتفصيل المسجد الاقصى وقبة الصخرة الشريفة .

وكان معلمنا متدينا ، يذكر « قدس شريف » بكل خشوع واجلال ، على حين كان يذكر أسماء المدن الاخرى في سرد عادي ، لا تشوبه مسحة من التقدير .

ومن يومها ، وعلى يد معلم الجغرافيا ، انغرس حب « قدس شريف » في فؤادي . واصبحت انوق لرؤيتها وان اقضي اياما في ربوعها .

ولكن معلم القرآن الكريم قد ذهب بعيدا الى أعمق من ذلك ، فقد غرز حب المدينة في جوارحي ، وانتقل الحب من الجغرافيا الى التاريخ الى الدين .

ومضى معنا معلم الدين ، يسرد علينا من خزائن ذاكرته سيرة « قدس شريف » ومقامها في الاسلام ، مستعرضا تاريخها القديم منذ ملكي صادق ، اليبوسي الكنعاني العربي ، اول من اختط مدينة القدس ليتعبد فيها هو وعشيرته واطلق عليها اسم قرية السلام .